من تراب الطريق (٤٨٣)

على هامش معالم التقريب(*)
العلم والذكر، لا الكهانة

يبدو أن الانسياق وراء الطابع الحسى السائد فى هذه الدنيا ، والتأثر بالفخامة والأبهة والقوة والاقتداء ، قاسم مشترك بين البشر بعامة ، ومع ذلك فإن الإسلام بمنظومة أحكامه ، وسير الصالحين بمر الزمان ، قد طبع الإعجاب بهذه النماذج فى نفوسنا ، ومازلنا نسمع فى أعماقنا ـ كما يقول محمد عبدالله محمد فى معالم التقريب ـ أصوات آبائنا الأولين ، ومازالت نفوسنا تؤثر نماذجهم الفريدة الغالية الزاخرة بالقوة المترفعة فى فقرها ، المتعالية على المال والمادة أو الزاهدة فيهما وفى السلطان المستند إليهما أو المستمد منهما . قد نصفق ونعجب بالفخم كما صفق السابقون ، وننبهر بعزه وأبهته ، ولكن قلوبنا لا تزال تخفق كما خفقت قلوب آبائنا ، وما عساها تخفق قلوب أبنائنا من بعدنا ـ إعزازا وإجلالاً لرجل عظيم سامق العظمة عالى القامة والمهابة .. لم يخجل من الفقر ، ولم يخشه حين ولى أمور الناس ، فحمل فقره معه وحوله ، سواء فى حياته الخاصة أو حياته العامة ، وجابه به الدنيا بأسرها فى وقار لا صلف ولا عقدة فيه ، وفى طمأنينة خالية من الادعاء ، وعفة خاشعة مجردة من الاستعراض ، ومجردة من الزهو بما كان له من هيبة الصدق فى العبودية لله والإخلاص والشجاعة فى الولاء له سبحانه وتعالى وللمسلمين الذين وكلوا إليه أمورهم فحمل عنهم همومهم ، ولم يبحث عن استيلاد الهيبة من الفخامة أو الأبهة اللتين أغرق وأمعن فيهما كثيرون ، ولم يبح لنفسه أن يتقاضى على

(*) المال ٧/ ٩/ ٢٠١٠ .

مهمته العظمى التى نذر لها حياته ونهاره وليله إلاّ النزر القليل ، فى الوقت الذى أعطى فيه للناس ما ميزهم به على أهل بيته .

فلم تكن حياته ولا حياة أولاده وأزواجه وذريته بأعز عنده من حيوات الناس ، بل كان يعطى لهؤلاء ما لا يعطيه لأهله . سهر لتنام الرعية ، وشقى لترتاح ، وراعت صورته صاحب كسرى حين رآه مشتملا ببردة كاد العهد يبليها ، بينما عهده بملوك الفرس أن لها سورا من الأحراس تحميها فوق الثرى ، رآه تحت ظل شجرة متدثرا بهذه البردة البالية ، فقال فيها نظمه حافظ إبراهيم شاعر النيل ـ قال قولة حق أصبحت مثلا ، وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها ، أمنت لما أقمت العدل بينهم ، فنمت نوم قرير العين هانيها.

عن الفاروق عمر بن الخطاب أحدثكم ، هذا الصحابى الجليل الذى لم تغيره إمارة المسلمين وخلافة خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، تفه فى فمه طعم السلطة وفهم أنها واجب ومسئولية ، لا صدارة ولا جاه ولا وجاهة ولا أبهة ولا ركوب على رقاب الناس . تستوقفه سيدة بسيطة وهو أمير المؤمنين ، ويطول بينهما الحديث فلا يستعجلها ، ولا يضيق بها صدره ، فلما سأله رفقاؤه كيف أعطاها وأنصت لها كل هذا الوقت ، راجعهم متعجبا كيف لا يتوقف وينصت لها وهى التى سمع الله حوارها لرسوله المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ، وأنزل فى شأنها سورة المجادلة التى يقول جل وعلا فى بدايتها : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة :١] ، وأتمت السورة أحكام الظهار فيمن يظاهرون من نسائهم .

اشتراه الناس لأنفسهم يوم بايعوه بالخلافة أو بإمارة المسلمين ، وتملكوه حين ملّكوه ، فعاش حياته فى خدمتهم ، ولم يميز نفسه ولا آله بشىء ، ولم

يرتكب ما يحتمى من الناس بسببه ، أو يحتاط لأجله منهم ، فقتله بعض الناس وهو أفضل الناس لكى يوهب من ربه فرصة الموت من أجلهم فتتم آية الله فيه .

على أن المال لم يقتصر اتصاله بالدين على بذل القُرُبات ، أو فى استخدامه للتعبير عن التدين والعواطف الدينية ، وإنما بقى للمال ـ مع زهد هؤلاء الزاهدين الكرام ـ اتصال وثيق فى شأن توفير الخدمات الدينية . ولم يكن ذلك هو تكليف الإسلام فى أول عهده ، فلم يُحمِّل الجماعة الإنسانية نفقات خدمة دينية متخصصة ، بل كان مُعْرضا عن ذلك ، ولم يعرف ولم يقر كهانة ، ورفض كل صور الوصاية على علاقة العبد بربه ، ولم يجعل الكهانة وساطة بين الإنسان وبين خالقه ، وإنما أحال الناس ـ فقط ـ إلى أهل الذكر فيما لا يعلمون . والملحوظ أن الإسلام منذ أول عهده قد حرص على جعل العلم هو فرض الكفاية على المسلم ، وندب كل مسلم حاز قدرًا كافيا من العلم بأحكام الدين للقيام بالخدمات الدينية العادية لنفسه ، ولمن يحتاجون إلى معونته من أهله وعشيرته وإخوانه ، بذلك صار كل مسلم حاز علما من أهل الذكر وإن لم يكن من أهل الكهانة ، وصار عدد هؤلاء العلماء أضعاف عددهم فى الملل الأخرى ، فكاد عددهم يتساوى مع عدد البالغين من المسلمين الذين كانوا جميعًا مجندين للدعوة والخدمة ، ذلك لأن دين المسلم اتصال مباشر بلا واسطة بينه وبين الله ، ولا تجوز فيه الإنابة إلاَّ فى أحوال مستثناة للضرورة ، كالحج عن المريض العاجز . ومع ذلك فإن اتساع رقعة بلاد الإسلام وعدد المسلمين ، وتباين اللغات والعادات والظروف ، وصوارف الحياة ، أدى إلى ظهور التخصص والتفرغ فى الخدمة الدينية ، لا بدافع أو كستار للكهانة ،

وإنما للقيام بوظيفة أهل الذكر الذين يلجأ إليهم من لا يعلمون من دينهم ليتعلموا منهم ما يجبون معرفته .

وشيئا فشيئا نمت هذه التخصصات والفروع ، وأنشئت دور العلم والفقه ، وأوقفت الأوقاف للصرف عليها ، وأجريت الأرزاق لطلاب العلم وللقائمين عليه ، وصار للمال وظيفة ملحوظة فى توفير الخدمات الدينية .

على أن الإسلام لم يسمح قط بتفوق أو تصدر أو تسلط المال والمادية بعامة ، ولا سمح بأن يطردا المثالية من الأرض ، فهى قوة حيوية أقوى منهما سببا ، تبقى حتى وإن ذوت ـ كامنة فى البذور ، باعثة لآمال الناس ، ومنها تنهمر أمطار الفضل والرحمة ـ من لدن الرحيم الكريم الجواد ، فعادت هذه السنابل فنبتت ونمت وأينعت وأزهرت وأثمرت ، حتى ملأت الأنفس بالنماء والرجاء .

*****